عدد خاص

المورد

مجلة تراثية فصلية

تصدرها وزارة الثقافة والاعلام - دار الجاحظ - الجمهورية العراقية

المجلد الثامن - العدد الرابع 1400 - 1979

4

WWW.ATTAWEEL.COM

أسد الدين محمد

حملات تيمور على بغـــداد

٧٩٥ـ٨٠٧هـ/١٣٩٣ـ١٤٠٥م

بقلـــم

نوري عبدالحميد خليل

جامعة بغداد/كلية التربية

تجزات المملكة الايلخانية سنة ٧٣٦/١٣٣٥م، واندلعت الحروب بين الطامعين بالسلطة ، وقـد تمكن الشيخ حسن الجلائري ان يستقل بالعراق سنة ٧٣٩هـ/١٣٣٨م ، ويؤسس الدولـة الجلائرية ؛ واتخذ من بغداد عاصمة لـه . وفي سنة ٧٥٧هـ/١٣٥٦م تولى الحكم ابنه الشيخ اويس الذي بسط نفوذه على منطقة اذربيجان الغنية ، ونقل عاصمته الى تبريز ، اما العراق فقد اصبح ولاية جلائرية . ولما خلفه ابنه حسين سنة ٧٧٦هـ/١٣٧٤م ، وكان صغير السن ضعيفا ؛ تسلط امراء الجيش على شؤون الحكم، وانضم فريق منهم الى اخيه الشيخ علي حاكم بغداد ؛ ومال فريق آخر الى اخيه الثاني احمد ، وكان حاكما على ولاية البصرة . ونشب صراع على السلطة بين الاخوة الثلاثة ، انتهى سنة ٧٨٤هـ/١٣٨٢م بمقتل السلطان حسين واستيلاء احمد على الحكم في تبريز .

لكن السلطان احمد اساء معاملة اخوتـه وامراء الجيش ، فهرب اخوه بايزيد الى مدينة السلطانية ، عاصمة الايلخانيين ، لاجئا عند حاكمها الجلائري الامير عادل اغا ؛ وكان ساخطا على السلطان احمد ايضا ؛ فاكرم بايزيد واقامه سلطانا هناك . ولجأ قسم من الامراء الى بغداد ، ونصبوا الشيخ علي سلطانا ؛ وساروا به نحو تبريز على رأس جيش عراقي كبير . وقد تمكن السلطان احمد من قتل اخيه الشيخ علي ، وتشتيت جيش بغداد في السنة التالية ، بمساعدة حليفه قره محمد حاكم التركمان القره‌قوينلو . غير ان الامور لم تستتب للسلطان احمد ؛ فقد شهد العالم الاسلامي في عهده موجة مغولية جديدة ، اندفعت من اواسط اسيا بقيادة تيمور (تيمورلنك)[1] .

ينتسب تيمور الى احدى القبائل المغولية ـ التركية ، وقد نشأ نشأة اسلامية في مدينة كش في ما وراء النهر (جيحون) ؛ وصاحب نقراءه من اولاد الامراء والوزراء ، وتدرب على فنون القتال . وقد مكنته شجاعته العسكرية من ضم القبائل المغولية تحت لوائه ، والتخلص من الامراء المنافسين على السلطة واحدا بعد الاخر ؛ واصبح حاكما على ما وراء النهر سنة ٧٧١هـ/١٣٦٩م ، واتخذ سمرقند عاصمة لـه . وكانت الاوضاع الاقتصادية المتردية في بلاد ما وراء النهر ، ورغبة تيمور في السيطرة ؛ وعدم اعترافه بوجود حاكم آخر ؛ من العوامل المهمة في اندفاعه نحو الغرب ، لا سيما وقد اعتبر نفسه وريثا لاملاك المغول ؛ والامبراطورية الايلخانية الواسعة التي كانت تضم خراسان وبلاد الجبل والعراق العربي واذربيجان والاحواز وفارس وديار بكر واسيا الصغرى[2] .

---

(١) نوري عبدالحميد خليل ، العراق في العهد الجلايري ١٣٣٧ ـ ١٤١١م ، رسالة ماجستير غير منشورة) كلية الاداب ـ جامعة بغداد ١٩٧٦ ، ص ٢٧ ـ ٣٠ ؛ وانظر ايضا : شيرين بياني ، تاريخ آل جلاير (طهران ١٣٤٥) ص ١٢ ـ ١٠٨ ؛ عباس العزاوي ، تاريخ العراق بين احتلالين جـ٢ (بغداد ١٩٣٦) ص ٢٤ ـ ٢٦ ،

(٢) جاسم مهاوي حسين ، تاريخ الغزو التيموري للعراق والشام واثاره السياسية ١٣٨٥ ـ ١٤٠٥م ، رسالة ←

WWW.ATTAWEEL.COM

اثارت الانتصارات التي احرزها تيمور في اواسط آسيا وشمال ايران والولايات الايلخانية قلق السلطان احمد في تبريز ، فامر سنة ٧٨٧هـ/ ١٣٨٥م بوضع حامية عسكرية كبيرة في مدينة السلطانية . وانسحب الى بغداد ، لكن قوات تيمور داهمت السلطانية ، بعد فترة قصيرة ، واستولت عليها[٢] . ويبدو ان السلطان اراد تقوية مركزه في تبريز وابقاء سيطرته عليها ، فسار اليها في السنة التالية على رأس جيش عراقي كبير من بغداد ، غير ان قوات تيمور هاجمت المدينة فاضطر السلطان الى التراجع عنها ، ودخلها تيمور دون مقاومة[٤] .

وبعد ان اخضع تيمور اذربيجان وجورجيا وارمينيا ، كان متوقعا ان يضع العراق ضمن مخططاته التوسعية ، كونه مفتاحا الى بلاد الشام والحجاز ومصر ، ولاجل تامين طرق التجارة القادمة من الخليج العربي الى بغداد وتبريز وسمرقند . وكانت الاوضاع السائدة في العراق لا تساعد على المقاومة ، فقد اتسمت سياسة السلطان احمد بضيق الافق ، وعدم تقييمه لقوة تيمور . فلم يتخذ اجراءات عسكرية لدفع خطره، او اقامة جبهة داخلية قوية تدعمه ، بل اجهد نفسه في القضاء على خصومه السياسيين ، ففقد خيرة ضباط جيشه . ويقول عزيز الاسترابادي ، وكان نديمه في بغداد : ان السلطان احمد « قتل عددا كبيرا من قادة الجيش واعيان رجال الدولة، من ذوي الكفاءة والدراية والراي في تدبير الامور ، وجمع حوله عددا من الاسافل ممن عرفوا بالجهل والحماقة والخمول ، ونصبهم في المناصب العليا . وقد ادى تقصيرهم وسوء تصرفهم الى ايجاد فتور كبير في اعمال الدولة ، فقامت المعارضة والفتن في كل مكان ، وانصرف السلطان الى اقامة مجالس الشراب ، ولم يصرف لحظة واحدة في اعمال الملك والدولة »[٥] . وتتفق مصادر تيمور الرسمية مع المصادر المصرية على ان سكان بغداد كرهوا السلطان احمد وسياسته التعسفية ، فكاتب بعض اعيانها تيمور يحرضونه على سلطانهم ، ويستحثونه القدوم واحتلال بغداد ، حتى ان بعض موظفي البريد وكشافة الطرق الذين ارسلهم السلطان احمد لرصد تحركات تيمور ، لجأوا الى تيمور ودخلوا في طاعته قبل وصوله الى بغداد[٦] .

اما على الصعيد الخارجي فان السلطان احمد لم يتعاون مع الدول المجاورة للوقوف بوجه تيمور ، واهمل العرض الذي تقدم به الامير ولي حاكم مازندران لاقامة حلف معه ضد تيمور بالتعاون مع الدولة المظفرية في فارس ، واتسمت علاقته بالدولة الاخيرة بطابع عدائي[٧] . كما اهمل العرض الذي تقدم به تقتمش ، خان القبيلة الذهبية الحاكمة في جهات القولغا ، والذي اقلقه اقتراب جيش تيمور من حدود بلاده ، ولما شعر تقتمش بضعف السلطان احمد ، ارسل في سنة ٧٨٧هـ/١٣٨٥م (٥٠) الف فارس للمرابطة عند مدينة دربند (باب الابواب) على بحر الخزر ، تحسبا للطوارىء . وفي الوقت نفسه ارسل الى بغداد وفدا برئاسة قاضي مدينة سراي عاصمة القبيلة الذهبية ، عارضا على السلطان احمد اقامة تعاون ضد عدوهما المشترك ، الا ان السلطان لم يغتنم هذه الفرصة ، بل اساء معاملة احد اعضاء الوفد ، مما ادى الى تردي العلاقة مع تقتمش[٨] .

لم يدرك السلطان احمد خطر تيمور الا بعد فوات الاوان ، وبعد ان فقد العاصمة تبريز ، فاخذ يفتش عن حليف يساعده على الوقوف بوجه هذا الخطر ، وقد باءت المحاولات التي بذلها للتحالف مع العثمانيين بالفشل ، كما انه لم يحصل على مساعدة المماليك الجراكسة في مصر والشام ، بسبب اضطراب مملكتهم وسوء اوضاعها الداخلية[٩] .

ماجستير (غير منشورة) كلية الاداب ـ جامعة بغداد ١٩٧٦ ، ص ٤٤ ـ ٦١ .

(٢) شهاب الدين عبدالله بن لطف الله بن عبدالرشيد الخوافي المدعو بحافظ ابرو ، ذيل جامع التواريخ رشيدي ، (طهران ١٣١٧) ، ص ٢٢٤ ـ ٢٢٥ .

(٤) معين الدين نطنزي (منسوب لـه) منتخب التواريخ معيني ، (طهران ١٣٣٦) ص ٢٢٠ .

(٥) عزيز ابن اردشير الاسترابادي ، بزم ورزم (استانبول ١٩٢٨) ص ١٦ ـ ١٧ ؛ خليل ، العراق في العهد الجلايري ، ص ١٦٢ .

(٦) تيمور ، تزوكات تيموري ، تحرير ابو طالب حسيني (اكسفورد ١٧٨٣) ص ١٢٤ ـ ١٢٥ ، ناصر الدين محمد بن عبدالرحيم بن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، تحقيق قسطنطين زريق ونجلاء عز الدين (بيروت ١٩٣٨) جـ٩ ق٢ ص ٢٤٤ ؛ تقي الدين احمد بن علي المقريزي ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، حققه سعيد عبدالفتاح عاشور (القاهرة ١٩٠٧٠) جـ٣ ق٢ ، ص ٧٨٨ .

(٧) نطنزي ، منتخب التواريخ ، ص ٢٢٥ ؛ حسين ، الغزو التيموري ، ص ٩٥ ـ ٩٦ .

(٨) حافظ ابرو : ذيل ، ص ٢٢٥ ـ ٢٢٦ ؛ محمد بن برهان الدين خواوند شاه المشهور بميرخواند ،روضة الصفا (طهران ١٣٣٩) جـ٥ ، ص ٥٩٥ .

(٩) حسين ، الغزو التيموري ، ص ٩٩ ـ ١٠٠ .

الحملة الاولى ٧٩٥هـ / ١٣٩٢م :ـ

في ١٥ رجب ٧٩٤هـ/١٣٩٢م زحف تيمور على راس جيش يبلغ تعداده حوالي مئة الف مقاتل من جهات ما وراء النهر نحو الغرب ، وبعد ان اخضعت هذه القوات فارس وخوزستان وبلادالجبل واحكمت سيطرتها في السنة التالية على ايران ، تجمعت في الثامن من شعبان ٧٩٥هـ/١٣٩٣م في همذان تمهيدا للزحف على بغداد(١٠) .

بعث تيمور رسالة الى السلطان احمد ، ومعها الخلعة والسكة ، وامره باعلان خضوعه ؛ وان يذكر اسمه على النقود وفي الخطبة ، والاسراع بالمثول بين يديه لتقديم فروض الطاعة(١١) . لكن السلطان رفض ذلك ، واجاب برسالة تهكمية ، اعلن فيها استخفافه بتيمور ، واستغرابه من اعجابه الشديد بنفسه ؛ فكيف « يصبح الثعلب الضال الذي لايد له ؛ ولا رجل ليثا ، وكيف يتقابل الاصل مع الاصيل » معتبرا اياه مجرد (نملة في صحراء)(١٢) .

شرعت قوات تيمور في ١٣ شعبان ٧٩٥هـ/ ١٣٩٣م بسلسلة من الحملات في شمال العراق بقصد اخضاع القبائل الكردية والتركمانية المتحالفة مع السلطان احمد ، والاستحواذ على المواد الغذائية المتوفرة في المنطقة ؛ وضبط الطرق الموصلة الى بغداد . وبعد ان احكمت هذه القوات سيطرتها على الطريق الممتد بين همذان وجمجمال ، واخضعت القبائل الكردية والتركمانية المنتشرة على طوله(١٣) وجد السلطان احمد نفسه عاجزا عن مقاومةالجيش الزاحف ، فاراد تدارك الامر باعلان خضوعهوارسل اليه وفدا برئاسة الشيخ نور الدين عبدالرحمن الاسفراييني ، وكان من اكابر مشايخ بغداد ، وحمله رسالة الى تيمور ، معلنا فيها خضوعه اليه ، ومعتذرا عن الحضور بنفسه والمثول امامه ؛ وابدى ترحيبه به اذا اراد القدوم الى بغداد وارسل معه جملة من الهدايا الثمينة والتحف النادرة من بينها الخيول العربية ذات السروج المذهبة .

قابل الوفد تيمور في قرية اق بولاق ، قرب شهرزور بين همذان واربيل ، فاستقبله تيمور بحفاوة واجلال عظيمين ؛ لكنه رفض استلامالهدايا لان السلطان لم يحضر بنفسه لتقديم فروض الطاعة وبعد ان انعم على الشيخ خلعة وحصانا ثمينا مع كمية من النقود ، اعاده الى بغداد ؛ واعدا اياه بعدم التعرض لها(١٤) .

لقد اراد تيمور التمويه على السلطان احمد ؛ فبعد ان عاد الشيخ عبدالرحمن مطمئنا ، امر قواته في ١٢ شوال ٧٩٥هـ/١٣٩٣م بالزحف على بغداد . فتقدمت هذه القوات عبر ممرات جبلية ضيقة ، ووصلت بعد خمسة ايام الى مزار الشيخ ابراهيم يحيى المشهور بقبته ابراهيم الك ، قرب الخالص . ولما شاهد اتباع السلطان احمد غبار الجيش طيروا حمامة مع رسالة يخبرون فيهاالسلطان بوصول جيش تيمور . وحين وصل تيمور وعلمبالامر امرهم في الحال ان يرسلوا رسالة اخرى ، يذكرون فيها ان الغبار الذي شاهدوه لم يكن من اثر جيوش تيمور بل غبار التركمان الذين هربوا منه ؛ ثم امر قوته بالسير باقصى سرعة(١٥) .

تقدمت قوات تيمور لاحتلال بغداد ، وقد تولى قيادة المقدمة الامير عثمان عباس ، وتولى تيمور نفسه قيادة القلب ، وقاد الميمنة حفيده محمد سلطان ، والميسرة ابنه ميرانشاه ؛ اما عثمان بهادر فقد قاد المؤخرة(١٦) . فوصلت هذه القوات بغداد في ٢١ شوال / اب ، ونزلت في الجانب الشرقي (الرصافة) . اما السلطان احمد فحين علم بقدوم تيمور نقل امواله وحريمه واسلحته وارسلهم امامه الى الحلة ؛ ثم قطع الجسر ونقل السفن الى الجانب الغربي (الكرخ) واغرق بعضها واحرق البعض الاخر ، لكي لا يستفيد منها العدو ، وانسحب من بغداد مع عدد من اتباعه(١٧) . وبعد خروج السلطان احمد قام بعض اعيان المدينة بفتح الابواب واستقبلوا تيمور ، وكان على راس

---

(١٠) المصدر نفسه ، ص ١١٢ ـ ١١٧ .

(١١) احمد بن علي بن حجر العسقلاني ، انباء الغمر بابناء العمر ، تحقيق حسن حبشي (القاهرة ١٩٦٩) جـ١ ، ص ٥٢٤ ؛ ابي العباس احمد بن علي القلقشندي ، صبح الاعشى في صناعة الانشا (القاهرة ١٩٦٢) ، جـ٢ ص ٣١١ .

(١٢) بياني ، تاريخ آل جلايير ، ص ٨٢ ـ ٨٣ ، حسين ، الغزو التيموري ، ص ١٢٣ ـ ١٢٤ ..

(١٣) حسين ، الغزو التيموري ، ص ١١٧ ـ ١٢٠ .

(١٤) شرف الدين علي اليزدي ، ظفرنامة ، بتصحيح واهتمام محمد عباسي (طهران ١٣٣٦) جـ١ ، ص ٤٤٨ ـ ٤٤٩ ؛ عبدالله بن فتح الله الملقب بالفياني ، التاريخ الفياني، دراسة وتحقيق طارق نافع الحمداني (بغداد ١٩٧٥) ص ١٠٨ ـ ١٠٩ ، ١٨٥ .

(١٥) اليزدي ، ظفرنامة ، جـ١ ص ٤٥٠ ، خليل ، العراق في العهد الجلايري ص ١٥٥ .

(١٦) حسين ، الغزو التيموري ، ص ١٢٨ .

(١٧) اليزدي ، ظفرنامة ، جـ١ ص ٤٥١ ؛ الفياني ، ص ١١١ ، ١٨٦ .

المستقبلين الشيخ نظام الدين الشامي الذي دون فتوحات تيمور فيما بعد[١٨] .

عبر بعض اتباع تيمور نهر دجلة سباحة لجلب السفن الراسية في الجانب الغربي من بغداد ، والتي لم يتمكن السلطان احمد من اتلافها . فاستولوا على سفينة السلطان الخاصة المسماة الشمس ، وهي ذات ثلاثين مجدافا ، مع اربع سفن اخرى ، فاستخدم تيمور هذه السفن في العبور الى الجانب الغربي ، والسيطرة على بغداد[١٩] .

من الصعوبة بمكان تحديد حجم الخسارة التي تعرضت لها المدينة من جراء دخول جند تيمور ، فقد قدر المقريزي عدد اسكان الذين قتلوا بثلاثة الاف نفس[٢٠] . غير ان مصادر تيمور الرسمية لا تشير الى وقوع خسائر في الارواح لان المدينة استسلمت صلحا . وتذكر هذه المصادر ان تيمور اكتفى باخذ (مال الامان) ، وهي الضريبة التي اعتاد اخذها من سكان المدن التي تفتح صلحا ، مقابل الحفاظ على ارواحهم[٢١] . وقد اناط مهمة جمعها بأحد امراء السلطان احمد الذين تعاونوا معه والمدعو شرف الدين البليقي مع عدد من اعوانه[٢٢] .

كان امر تيمور ان يجبى من السكان كل حسب مقدرته المالية ، لكن الذين تولوا جمع الضريبة طالبوا الناس باموال كثيرة ، وحملوهم فوق طاقتهم[٢٣] . ويذكر المقريزي ان تيمور صادر اهل بغداد ثلاث مرات ، وجمع في كل مرة ١٥٠٠ تومان ، اي ما مجموعه ٤٥ مليون دينار عراقي (الدينار ست دراهم)[٢٤] . وقد رافق عملية الجمع ابشع انواع التعذيب واقساها ، وكان من بين الوسائل التي اتبعها الجند في تعذيب الناس : عصر الاعضاء والمشي على النار وتعليق البعض من الارجل . كما كانوا يدسون خرقة فيها تراب ناعم بانف المعذب حتى تكاد تخرج نفسه فيخلى عنه كي يستريح ، ثم تعاد العقوبة عليه[٢٥] . وقد مات من اثر التعذيب والعقوبة عدد كبير من الموسرين والتجار واعيان بغداد وامرائها ، قدرتهم المصادر المصرية بين ٧٠٠ ـ ٨٠٠ نفس[٢٦] . كما استولى اتباع تيمور على خزائن السلطان احمد ، وصادروا اموال الرؤساء والاعيان والامراء الذين هربوا معه ، منهم قاضي بغداد الشافعي غياث الدين ابن العاقولي ، ومحتسب بغداد وجيه الدين ابن الانباري ، ومحمد بن عبدالقادر الواسطي[٢٧] . وقاموا باذلال الناس باخراج الفتيات والاعتداء على اعراضهن ، ونهبوا كل ثمين يقع تحت ابصارهم من تحف ومجوهرات ، فكانوا يقتلعون الذهب والفضة التي تزين بيوت الاغنياء[٢٨] .

اما الخسارة في الجوانب الحضارية فقد كانت كبيرة جدا ، فرغم الكارثة التي حلت بالحضارة العربية بعد سقوط بغداد على ايدي المغول ، ظلت بغداد مركزا للعلم والصناعة والفن[٢٩] . الا ان تيمور امر بجمع الموهوبين من اصحاب الحرف والصناعات والفنون المختلفة ، ونقلهم الى عاصمته سمرقند . وقد حفظت المصادر اسماء عدد ممن شملهم النقل من امثال الموسيقي المشهور عبدالقادر المراغي[٣٠] ؛ الذي لازم السلطان اديس واولاده حسين واحمد ، وكان عارفا بجميع الالات ذوات الاوتار وخاصة العود ، والموسيقي المشهور قطب الموصلي ، وكان اعجوبة الزمان واستاذ علم الموسيقى والادوار ، والمصور المشهور عبدالحي البغدادي ، الذي استخدمه تيمور في تزيين بلاطه في سمرقند[٣١] .

---

(١٨) نظام الدين الشامي ، ظفرنامة ، بسعي واهتمام وتصحيح فلكسي تاور (بيروت ١٩٣٧) ص ١٢٩ ، ابن الفرات ؛ تاريخ ابن الفرات ، جـ٩ ق٢ ص ٢٤٤ .

(١٩) اليزدي ، ظفرنامة ، جـ١ ، ص ٤٥١ ؛ الفياني ، التاريخ الفياني ، ص ١١٢ ، ١٨٦ .

(٢٠) المقريزي ، السلوك ، جـ٩ ق٢ ، ص ٧٩٠ .

(٢١) الشامي ، ظفرنامة ، ص ١٤١ ؛ اليزدي ظفرنامة ، جـ١ ص ٤٥٧ .

(٢٢) الفياني ، التاريخ الفياني ، ص ١١٢ .

(٢٣) ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، جـ٩ ق٢ ص ٣٦٢ ، خليل ، العراق في العهد الجلايري ص ٣٨٦ .

(٢٤) المقريزي ، السلوك ، جـ٣ ق٢ ، ص ٧٩٠ .

(٢٥) حسين ، الغزو التيموري ، ص ١٢٧ .

(٢٦) القلقشندي ، صبح الاعشى ، جـ٧ ، ص ٢١٤ . ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، جـ٩ ق٢ ، ص ٣٦٢ ؛ عبدالرحمن محمد بن خلدون ، العبر وديوان المبتدأ والخبر (بيروت) م٥ ص ١٠٨٤ .

(٢٧) حسين ، الغزو التيموري ، ص ١٢٧ ـ ١٢٨ .

(٢٨) الاسترابادي ، بزم ورزم ص ١٩ ، حسين الغزو التيموري ، ص ١٢٩ .

(٢٩) خليل ، العراق في العهد الجلايري ، ص ٣٠١ ـ ٣٢٨ .

(٣٠) اليزدي ، ظفرنامة ، جـ١ ، ص ٤٥٦ ، الفياني ، التاريخ الفياني ، ص ١٨٨ .

(٣١) احمد بن محمد بن عبدالله بن عرب شاه الدمشقي ، عجائب المقدور في اخبار تيمور ، (لاهور ١٨٦٨) ص ١٥٥ ، ٤٦٩ ، نطنزي ، منتخب التواريخ ، ص ١٦٦ ؛ خليل ، العراق في العهد الجلايري ، ص ٢٢٤ ، ٢٢٨ .

ويذكر ابن عرب شاه الدمشقي ، وكان من جملة من نفلهم تيمور من بلاد الشام ، وعاش في سمرقند عدة سنوات ، ان بلاط تيمور ضم من النقاشين والخطاطين والرسامين وغيرهم من الصناع ما لا يحصى عددهم ، كان كل منهم علامة دهره واعجوبة عصره ، وقد اخذ عددا كبيرا منهم من العراق[٢٢] . كما امر ايضا بنقل عدد كبير من العلماء والفقهاء والشيوخ ، من امثال نظام الدين الشامي ، الذي اصبح مؤرخ بلاطه ، وصنف بأمره كتابا عن غزواته اسماه (ظفرنامه) اي النصر . وكذلك عبدالقادر الواسطي مدرس النحو والفرائض بالمدرسة النظامية ، والفقيه عبدالسلام ابن احمد الحسني ، والنسابة جمال الدين احمد ابن علي بن عنبة الحسني ، والفقيه عبدالله بن محمد الحسيني ، وابن النسابة محمد بن تقي الدين عبدالله الحسيني[٢٣] .

واتخذ تيمور اجراءات اخرى يقصد منها اظهار نفسه بمظهر الحامي للشريعة الاسلامية ، فاخذ يتقرب الى رجال الدين في بغداد ، وقام بزيارة مشاهد الامام ابي حنيفة والشيخ عبدالقادر الكيلاني والامام احمد بن حنبل والامام موسى الكاظم وحفيده الامام الجواد ، واوقف لهذه المشاهد اراض زراعية في بغداد وغيرها ، وخصص الاقطاعات والرواتب للسادات والعلماء والمشايخ والمدرسين[٢٤] . كما امر اتباعه بجمع المشروبات الموصلية والديار بكرية الموجودة في قصر السلطان احمد ، مع كافة الخمور الموجودة في المدينة ، واراقتها في نهر دجلة ، وامر ايضا بغلق بيوت اللطف (بيوت الدعارة)[٢٥] .

امضى تيمور في بغداد شهرين يتنزه في قصورها الفخمة ، وبيوت اللهو المطلة على ضفتي نهر دجلة ، تمكنت قواته خلالها من احكام سيطرتها على مدن العراق الجنوبية . ثم عين احد اعوانه المدعو مسعود السبزواري حاكما على بغداد ، وترك معه حامية عسكرية مقدارها ثلاثة آلاف فارس ، وسار نحو الموصل لاتمام فتح بقية مدن العراق[٢٦] .

(٢٢) ابن عرب شاه ، عجائب المقدور ص ٤٦٩ ؛ وانظر ايضا اليزدي ، ظفرنامة ، ج١ ، ص ٥٧١ – ٥٧٢ .
(٢٣) حسين ، الغزو التيموري ، ص ٢٩٢ – ٢٩٣ .
(٢٤) تيمور ، تزوكات تيموري ، ص ٣٥٦ – ٣٦٠ ؛ خليل ، العراق في العهد الجلايري ص ٢٥١ .
(٢٥) اليزدي ، ظفرنامة ، ج١ ، ص ٤٥٧ ، حافظ ابرو ، زبدة التواريخ بايسنغري ، بسعي واهتمام فلكس تاور (براغ ١٩٥٦) ، ص ١٠٨ ؛ حسين ، الغزو التيموري ، ص ١٧٢ .
(٢٦) الشامي ، ظفرنامة ، ص ١٤٥ ، اليزدي ، ظفرنامة ، ج١ ص ٤٥٧ ، ٤٦٩ ؛ حافظ ابرو ، زبدة التواريخ ، ص ١١٨ .
(٢٧) ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، ج٩ ق٢ ، ص ٢٤٤ – ٢٤٩ ، ٣٦٦ – ٣٦٧ ؛ المقريزي ، السلوك ، ج٣ ق٢ ، ص ٧٨٩ – ٨٠١ ، حافظ ابرو ، زبدة التواريخ ، ص ١١٧ .
(٢٨) محمد بن محمد بن صصري ، الدرة المضيئة في الدولة الظاهرية ، حققه ونشره وليم بربنر (بركلي ، جامعة كاليفورنيا ١٩٢٦) ، ص ١٥٨ – ١٥٩ ، خليل ، العراق في العهد الجلايري ، ص ٢١١ .
(٢٩) ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، ج٩ ق٢ ص ٢٨٢ – ٢٨٦ ؛ المقريزي ، السلوك ، ج٣ ق٢ ، ص ٨١٤ – ٨١٥ .
(٤٠) ابن صصري ، الدرة المضيئة ، ص ١٥٩ – ١٦٠ ؛ ابن حجر العسقلاني ، انباء ، ج١ ، ص ٤٧٥ ؛ ابن خلدون ، العبر ، م٥ ص ١١٧٥ – ١١٧٦ .

الحملة الثانية ٨٠٢هـ/١٤٠١م :-

حين هرب السلطان احمد من بغداد لاحقه عدد من اتباع تيمور ، وبعد مطاردات عنيفة قرب كربلاء ، تمكن السلطان ان يهرب مع عدد من اتباعه عبر الصحراء الى مدينة الرحبة على الفرات ، حيث منازل نعير بن حيار بن مهنا امير آل فضل ، الذي رحب به وانزله عنده ، ثم سار نحو حلب طالبا اللجوء عند السلطان المصري الظاهر برقوق (٧٨٤ – ٨٠١هـ/١٣٨٢ – ١٣٩٨م) ، فطلبه الاخير الى القاهرة ورحب به واكرمه[٢٧] .

اما في العراق فان مسعود السبزواري لم يتمكن من ضبط بغداد ، بسبب ضعف الحامية التي وضعها تيمور فيها . وقد شعر اتباع السلطان احمد بذلك فتجمعوا على الفرات ، واجتمع معهم ايضا عدد كبير من سكان بغداد الفارين ، وافراد القبائل العربية القاطنة على الفرات بين هيت وعنه ، وطلبوا من السلطان احمد الحضور اليهم ، للزحف على بغداد وطرد نائب تيمور منها[٢٨] . وكان السلطان احمد في هذا الوقت في بلاد الشام ، يشارك السلطان المصري برقوق استعداداته لمجابهة تيمور عند زحفه عليها . فانتهز هذه الفرصة وبدعم من السلطان المصري ، الذي امده بالمال والسلاح والخيل والجمال ، وكتب له تقليدا بسلطنة بغداد ، سار في الاول من شعبان ٧٩٦هـ/١٣٩٤م من دمشق الى بغداد[٢٩] . كما امر السلطان المصري كافة اتباع السلطان احمد المقيمين بالشام بالالتحاق بسلطانهم ، اما قوات برقوق فقد بقيت على الحدود ، رصدا للعدو ، وانتظارا لما يستجد في بغداد[٤٠] .

وجد مسعود السبزواري انه لا يستطيع المقاومة ، فقرر مغادرة المدينة ، لكنه اراد ان يشاغل الجيش الزاحف نحوه ، وان يتيح لاتباعه فرصة الخروج من بغداد . فامر بكسر السدود المقامة على نهر دجلة ، فاغرقت المياه مناطق واسعة بصورة اعاقت تقدم القوات العراقية مدة يومين ، تمكن خلالها مسعود السبزواري من الخروج مع اتباعه من بغداد ، وتوجهوا الى شوشتر في خوزستان . ثم دخل السلطان احمد بغداد ، وبدأ باعادة تنظيم جيشه معتمدا في ذلك على العرب والتركمان ، واخذ يعمل على اعادة تعمير المدينة وزراعتها[٤١] .

ان عودة السلطان احمد الى بغداد ادهشت تيمور ، فقرر انهاء حكمه ، واخضاع المدينة بصورة نهائية . ففي صيف ٨٠١هـ/١٣٩٨م ارسل ابنه ميرانشاه من تبريز على راس جيش كبير لمحاصرة بغداد ، لكن ميرانشاه اضطر الى الانسحاب بعد يومين من الحصار ، اذ واتته الانباء بقيام حركة تمرد ضده في تبريز[٤٢] . كما فشلت محاولة ثانية قام بها حفيد تيمور المدعو رستم في السنة التالية ، عندما وصلت قواته الى مندلي في جمادى الاخرة سنة ٨٠٢هـ/١٤٠٠م ، وبعد ان احتلت المدينة ونهبتها استعدت للزحف على بغداد[٤٣] . وفي الوقت نفسه كانت رغبة تيمور هي ان يلقي القبض على السلطان احمد حيا للانتقام منه . فاتفق مع نائبه في خوزستان الامير شروان بن شيخ براق منصوري ، على ان ياخذ مبلغا كبيرا من المال ويتظاهر بالهرب منه ويعلن لجوءه مع عدد من اتباعه لدى السلطان احمد . وقد انطلت الخطة في اول الامر على السلطان ، اذ رحب بشروان ، وجعله احد امرائه المقربين ، واقطعه قريتي القبة وزنكيادباد في منطقة ديالى وقرب مرتفعات حمرين .

شرع شروان يدس الاموال سرا الى كبار امراء السلطان احمد واقربائه بقصد استمالتهم ، وتسهيل مهمة القبض عليه . فأعطى لكل امير مبلغا يتراوح بين عشرة الاف الى ثلاثمائة الف دينار عراقي ، كل حسب رتبته ودوره في المؤامرة . لكن السلطان اكتشف المؤامرة في اواخر ادوارها ، فقد عثر خادمه ، كوره بهادر ، على القائمة التي وردت فيها اسماء المتآمرين والمبالغ التي استلموها من شروان ، في الوقت الذي وصلت فيه قوات رستم مندلي . فامر السلطان احمد بغلق ابواب المدينة ، وقتل كل من ورد اسمه في القائمة ، بما فيهم شروان ، حتى بلغ عدد القتلى في اسبوع واحد الفا شخص من امرائه واقاربه .

لقد اضعفت هذه المؤامرة قدرة السلطان العسكرية ، وافقدته خيرة ضباط جيشه ، واكفاهم ، ولم تعد له ثقة بهذا الجيش . فترك في احدى الليالي بغداد ، وتوجه سرا الى ديار بكر طالبا المساعدة من حليفه قره يوسف امير التركمان القره قوينلو . فخف قره يوسف مسرعا مع عدد كبير من اتباعه ، وعسكروا في الجانب الغربي من بغداد ، لتقديم الحماية للسلطان . وفي هذه الاثناء اضطر رستم قائد الجيش الزاحف نحو بغداد الى الانسحاب ، بسبب حدوث تمرد في فارس ، فاطمئن السلطان احمد ، لكنه اضطر الى تقديم مبالغ كبيرة من المال والاقمشة والخيول والسروج المذهبة الى قره يوسف واتباعه مكافئة لهم ، ولمنعهم من التعرض لمدينة بغداد او نهبها ، فعادوا الى موطنهم[٤٤] .

ادرك السلطان احمد ان تيمور لن يتركه يتمتع بحكم بغداد ، لا سيما بعد ان شرعت قواته بالزحف على مدينة سيواس في الاناضول سنة ٨٠٢هـ/١٤٠٠م . فاذا استطاعت هذه القوات احتلال المدينة ، فان تيمور سيسد عليه طريق الهرب الى بلاد العثمانيين ، كما ان الاوضاع السياسية في مصر وبلاد الشام اضطربت بعد وفاة السلطان برقوق . لذا قرر ان يسرع في الفرار ، فترك على حكم بغداد احد امرائه المدعو فرج الجلائري ، واخذ اهله واموالة ونفائسه ، وتوجه مع حليفه قره يوسف الى الدولة العثمانية ، فاستقبله السلطان بايزيد بن مراد الاول (٧٩١ ـ ٨٠٥هـ/١٣٨٩ ـ ١٤٠٢م) واقطعه منطقة كوتاهية ليعيش على مواردها[٤٥] .

---

(٤١) حافظ ابرو ، زبدة التواريخ ، ص ١١٨ ، ١٤٩ ؛ المقريزي ، السلوك جـ٣ ق٢ ، ص ٨١٧ ؛ ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، جـ٩ ق٢ ، ص ٢٨٦ ، ابن حجر العسقلاني ، انباء ، جـ٢ ص ٤٦٦ .

(٤٢) اليزدي ، ظفرنامة ، جـ٢ ، ص ١٤٨ ـ ١٤٩ ؛ الغياثي ، التاريخ الغياثي ، ص ١١٨ .

(٤٣) حافظ ابرو ، زبدة التواريخ ، ص ١٦٧ ، حسين ، الغزو التيموري ، ص ٢٤٦ .

(٤٤) الغياثي ، التاريخ الغياثي ، ص ١١٩ ـ ١٢٢ ، ١٩٦ ، اليزدي ، ظفرنامة ، جـ٢ ، ص ١٦٨ ـ ١٦٩ ، حافظ ابرو ، زبدة التواريخ ، ص ١٤٩ ـ ١٥١ .

(٤٥) حافظ ابرو ، زبدة التواريخ ، ص ١٥٥ ـ ١٥٦ ، ميرخواند ، روضة الصفا ، جـ٦ ، ص ٢٤٥ .

وبعد ان اتم تيمور احتلال بلاد الشام سنة ٨٠٣هـ/١٤٠١م ؛ وعاد الى ديار بكر ، أعد جيشا كبيرا وامره بالزحف على بغداد ، فوصلوا بعد عدة ايام الى الجانب الغربي ؛ وعسكروا في القسم الجنوبي من المدينة .

استبسل الامير فرج في الدفاع عن بغداد ، وفور عدم تسليمها مهما كلف الامر ، وحشد داخلها عددا كبيرا من مقاتلي العرب والتركمان ؛ وارسل الى امراء وحكام المدن العراقية القريبة ، طالبا منهم الحضور مع قواتهم لمشاركته في الدفاع عن العاصمة . فقدم الامير علي قلندر حاكم مندلي ، والامير حيان احمد حاكم بعقوبة ، وعبروا دجلة مع قواتهما من قرب المدائن . وقدم ايضا الامير فرخ شاه حاكم الحلة ، والامير ميكائيل حاكم السيب القريبة من الحلة ، مع قواتهما ، والتقوا جميعا عند قرية صرصر القريبة من الجانب الغربي من بغداد واجتمع معهم حوالي ثلاثة الاف فارس ثم تقدموا جميعا ، واشتبكوا مع قوات تيمور قرب عمارة السلطان احمد في الجانب الغربي ، حيث هزمت القوات العراقية ، وقتل الامير جان احمد مع عدد كبير من الجنود العراقيين ، وغرق قسم منهم في نهر دجلة عندما حاولوا الهرب ، بينما انسحب الباقي الى داخل المدينة[٤٦] .

اصر فرج على المقاومة رغم الخسارة التي تعرض لها اتباعه ، واعلن ان السلطان احمد امره ان لا يسلم المدينة الا عند حضور تيمور بنفسه . وحين ابلغ تيمور بالامر ، وكان في الموصل ، خف مع عدد كبير من اتباعه مسرعا عبر آلتون كوبري ، فوصل بغداد في ١٦ شوال ٨٠٣هـ/٣٠ ايار ١٤٠١ وعسكر مع اتباعه في الجانب الشرقي من المدينة ، فاحاطت قواته بالمدينة من جميع جوانبها .

امر تيمور باقامة جسر من القوارب جنوبي بغداد ، بالقرب من قرية العقاب ، ووضع باسفل النهر عددا من الرماة للحيلولة دون هرب اي شخص من المدينة . ثم شرعت قواته بنقب الاسوار ؛ وفي الوقت نفسه اقامت فرقة من هذه القوات ربوة ونصبت عليها المجنيق لرمي المدينة بالاحجار . وتؤكد تواريخ تيمور الرسمية ان الامير فرج اراد التأكد من وجود تيمور ، فارسل وفدا الى معسكره . فاستقبل تيمور الوفد بحفاوة واعاده الى المدينة ؛ لكن فرج لم يصدق الخبر ، وامر بسجن رئيس الوفد[٤٧] . فاحضر تيمور احد اعيان محلة الامام ابي حنيفة المدعو الشيخ بشر واقترب معه من السور ؛ فاقسم الشيخ بشر لفرج ولجنود المرابطين على السور ان رفيقه هو تيمور بعينه ، فلم يصدقوه بل رموه بالنشاب[٤٨] .

شدد تيمور الحصار على المدينة ، وتمكنت قواته من احداث عدة حفر في السور واشعلوا فيها النيران ؛ فسقط قسم من السور . لكن المدافعين سارعوا الى اصلاحه ، وتمكنوا من تاخير فتح المدينة اربعين يوما عانى خلالها السكان من الجوع وارتفاع الاسعار ؛ بسبب شحة المواد الغذائية . ورغم تفوق جيش تيمور من حيث العدد والعدة ؛ فان الظروف كانت في صالح الجيش العراقي ؛ بسبب شدة الحرارة وصعوبة تموين الجيش المهاجم . لكن اهمال بعض جنود بغداد وتهاونهم ادى الى فتح المدينة . ففي ظهيرة يوم ٢٧ ذي القعدة ٨٠٣هـ/٣٠ حزيران ١٤٠١م نزل الجند المدافعون عن برج العجمي في الجهة الجنوبية من بغداد ؛ وذهبوا الى منازلهم للاستراحة من شدة الحر ، ووضعوا خوذهم على العصي في الاماكن المخصصة لهم على السور ، الا ان اتباع تيمور اكتشفوا الامر . فتسلقوا السور بواسطة السلالم ؛ واحتلوا البرج . وفي الوقت نفسه تمكنت القوات المهاجمة من احداث ثغرات في السور فتم فتح المدينة ؛ ولم يجد السكان ملاذا من سيوف المحتلين سوى نهر دجلة ؛ لكن الجنود المرابطين على الجسر قتلوا كل من اقترب منهم . اما الامير فرج فقد ركب مع ابنته قاربا وفر عبر دجلة ايضا ، لكن اتباع تيمور تمكنوا من اغراق القارب ومن فيه ؛ ثم انتشلوا جثة فرج واوصلوها الى ضفة النهر[٤٩] .

تعرضت بغداد لخسارة كبيرة من جراء هذه الحملة ؛ فقد امر تيمور باستباحة المدينة ، واجراء مذبحة عامة للسكان ، شملت حتى الشيوخ

---

(٤٦) اليزدي ، ظفرنامة ، جـ٢ ، ص ٢٥٧ ـ ٢٥٨ ؛ ميرخواند ، روضة الصفا ، جـ٦ ، ص ٣٨٢ ـ ٣٨٣ ؛ خليل ، العراق في العهد الجلايري ، ص ٢٥٧ .

(٤٧) الشامي ، ظفرنامة ، ص ٢٣٩ ـ ٢٤٠ ؛ اليزدي ، ظفرنامة جـ٢ ، ص ٢٥٨ ـ ٢٦١ .

(٤٨) الفياض ، التاريخ ٢ص ١٢٥ ، حسين ، الغزو التيموري ، ٢ص ٣٥٧ ـ ٣٥٨ .

(٤٩) الشامي ، ظفر نامة ص ٢٤١ ؛ اليزدي ، ظفرنامة ، جـ٢ ، ص ٢٦٢ ـ ٢٦٤ ؛ الفياض ـ ص ١٢٦ .

والاطفال[٥٠] . والزم اتباعه ان ياتيه كل واحد منهم براسين من رؤوس السكان ؛ فلما عجز الجند عن تحصيل سكان بغداد ، قطعوا رؤوس بعض اسرى الشام ، بل ان بعضهم كان يقطع راس المراة ويزيل شعرها ويحفره . وقد قدرت بعض المصادر عدد من قتل بين ٩٠ الف ومئة الف ، واعتقد بعضها الاخر ان القتل شمل سكان المدينة جميعا حتى فني اهلها ، واقيمت من جماجم القتلى عدة مآذن لتكون عبرة لمن تسول له نفسه برفع راية العصيان[٥١] . ورغم ما في ذلك من مبالغات فانه يدل على كثرة من قتل ، وعلى مبلغ القسوة والعنف الذي مارسه اتباع تيمور . ولم يكتف تيمور بهذه المجزرة الرهيبة ، بل امر اتباعه بتخريب المدينة ، وتهديم العمارات والاسواق والخانات والبيوت ، وتحويلها قاعا صفصفا[٥٢] .

لقد تعفن هواء بغداد من نتن جثث القتلى كما يذكر اليزدي ، فتركها تيمور في بداية ذي الحجة سنة ٨٠٣هـ/١٤٠١م ، وتوجه شمالا نحو شهرزور ومنها الى تبريز[٥٣] . ولم تذكر المصادر شيئا عن الاجراءات الادارية التي اتخذها لضبط المدينة ، ويبدو ان الفوضى عمتها بعد خروجه منها . وعندما بدا زحفه في السنة التالية نحو الاناضول ، انتهز السلطان احمد هذه الفرصة وغادر الاناضول متوجها الى العراق . وقد واصل سيره على امتداد نهر الفرات ، فدخل بغداد دون مقاومة ؛ واخذ يعمل على اعادة السكان الفارين وتعمير المدينة وزراعة اراضيها[٥٤] . لكن قوات تيمور داهمت المدينة في الثامن من رجب سنة ٨٠٤هـ/١٤٠١م من الجانب الشرقي ، فاندحش السلطان احمد ، وآثر الفرار الى الحلة ، ومنها الى منطقة الاهوار والمستنقعات في القسم الاسفل من الفرات . الا ان قوات تيمور انسحبت من العراق بعد فترة قصيرة[٥٥] .

ثم نشب صراع حول بغداد بين السلطان احمد وحليفه قره يوسف ، انتهى باستيلاء الاخير عليها ، بعد ان زحف عليها من الحلة ، فتركها السلطان احمد في الخامس من محرم سنة ٨٠٦هـ/١٤٠٣م هاربا الى بلاد الشام . اما قره يوسف فلم يتمتع بحكم بغداد سوى ثلاثة اشهر ، اذ قرر تيمور وضع حد لسيطرته ؛ وضم بغداد الى نفوذه . فاسند حكم العراق لحفيده ابي بكر ، وامره بان يقوم باستمالة السكان وتشجيعهم على بناء دورهم وزراعة اراضيهم ، وان يعمل على اعادة تعمير المدينة واعادتها الى ازدهارها السابق . فتقدمت قوات ابي بكر نحو بغداد ، والتقت مع قوات قره يوسف عند نهر الفنم قرب الحلة ؛ حيث اندحر قره يوسف وهرب الى بلاد الشام ايضا[٥٦] . ثم دخل ابو بكر بغداد ، غير ان حكمه لم يدم طويلا . فقد مات تيمور في ١٧ شعبان سنة ٨٠٧هـ/١٤٠٥م ؛ واضطربت الاوضاع السياسية في العراق ، فاستغل السلطان احمد ذلك وتوجه من الشام نحو بغداد ، ودخلها في الخامس من محرم سنة ٨٠٨هـ/١٤٠٥م وطرد حاكمها التيموري دولة خواجه ايناق[٥٧] .

---

(٥٠) تيمور ، تزوكات تيموري ، ص١٥١ ، الشامي ، ص ٢٤١ .

(٥١) ابن عرب شاه ، عجائب المقدور ، ص ٢٤٨-٢٤٩ ، ابن حجر العسقلاني ، انباء ، جـ٢ ص١١٨ ، ٢٠٨ ، الفياض التاريخ الفياض ، ص ١٢٦ ، ٢٠٢-٢٠٣ حين الغزو التيموري ، ص ٣٦٠-٣٦١ .

(٥٢) تيمور ، تزوكات تيموري ، ص ١٥١ ؛ الشامي ، ظفرنامة، ص٢٤١ ؛ اليزدي ، ظفرنامة ، جـ٢ ص ٢٦٦ ، الفياض التاريخ الفياض ، ص ١٢٧ .

(٥٣) اليزدي ، ظفرنامة ، جـ٢ ص ٢٦٦ ، حسين ، الغزو التيموري ، ص ٣٦٨ .

(٥٤) الفياض ، التاريخ الفياض ، ص٢٠٣-٢٠٤ .

(٥٥) اليزدي ، ظفرنامة ، جـ٢ ، ص٢٧٦-٢٧٧ ، حسين الغزو التيموري ص ٣٧٢-٣٧٤ .

(٥٦) اليزدي ، ظفرنامة ، جـ٢ ، ص٣٦٩-٣٧١ ، ٢٩١،٢٩٢ الفياض ، التاريخ الفياض ، ص ٢٠٦-٢١٠

(٥٧) ميرخواند ، روضة الصفا ، جـ٢ ، ص ٥٠-٥٥٢ ، خليل، العراق في العهد الجلايري ، ص ٢١٢ .

WWW.ATTAWEEL.COM